

جهد الشاطبي (٧٩٠هـ) في التفسير الموضوعي الكشفي

الدكتور

أحمد عثمان رحماني*

* أستاذ النقد الأدبي المشارك بكلية الدراسات الإسلامية والعربية - دبي

ملخص البحث:

البحث يتناول موضوع التفسير الموضوعي الكشفي ليؤصل له، لذلك بدأ بمقدمة تاريخية تهدف إلى بيان معنى الإدراك الكلي وأهميته وأصوله في الثقافة الإسلامية، سواء في مجال التفسير أو النقد الأدبي ثم تدرج ليكشف بوضوح على تطور الفكرة في التفسير لتقترح في البداية منهجا للتفسير بناء على فكرة الكليات عند الشاطبي ثم تدخل مرحلة التطبيق عند البقاعي في تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور مروراً بجهود العلماء في نظرية المناسبات وقواعدها كما تجلت عند الزركشي والسيوطي ليصل إلى الهدف الأساسي وهو جهد الشاطبي في التفسير الموضوعي فبدأ بالتعريف بالشاطبي تمهيدا لجهوده النظرية والتطبيقية في مجال التفسير الموضوعي القائم على فكرة الكليات أو الإدراك الشامل لسور القرآن، وبيان أنواع الوحدات عنده ثم الآليات المنهجية التي قام عليها منهجه.

إن هذا البحث يتساءل إذن عن الجهد المبذول عند الشاطبي تحديداً، لإثبات الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية وهي مشكلة تناقش فيها القدماء مثل عز الدين ابن عبد السلام الذي استبعد وجودها لاختلاف أسباب النزول^(١)، ومثل الشاطبي الذي حاول أن يبرهن عليها نظرية وتطبيقاً،

من كل ذلك يتبين أن الحديث في الوحدة الموضوعية في القرآن حديث قديم وطريقه شاق تحفه صعوبات جمة، فكيف تناوله الشاطبي وما الجهود التي بذلها ليقدم نظريته في هذا المجال الحيوي من مجالات الثقافة الإسلامية؟ ومن تقدمه من العلماء المحققين فأثر فيه؟ وما المنهج الذي اعتمده في ذلك؟ وهل اكتفى بالنظرية أم تجاوزها إلى التطبيق؟

(١) عز الدين بن عبد السلام: كتاب الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز: ص: ٢٢١. وانظر ذلك في: أحمد رحمانى: التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقاً: ص: ٣٦.

المقدمة :-

الحمد لله الذي أنعم علينا بنعمة القرآن وكفى بها نعمة والصلاة والسلام على البشير
النذير محمد رسول الله ﷺ المبعوث رحمة للعالمين وبعد:

فإن هذا البحث يتناول جهود الشاطبي في التفسير الموضوعي، والشاطبي هو
إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، الإمام العلامة المحقق
القدوة الحافظ الجليل المجتهد، ولد بغرناطة حوالي سنة ٧٣٠ وأخذ العلم عن أبي عبد الله
محمد بن الفخار البيري وغيره بالأندلس كما أخذ عن ابن مرزوق التلمساني والشريف
السبتي في المغرب العربي ومن مؤلفاته: الموافقات، والاعتصام، والمجالس، وشرح
الخلاصة من ألفية ابن مالك في النحو، والإفادات والإنشاءات... توفي سنة ٧٩٠ للهجرة
١٣٨٨ للميلاد، يعد أحد أبرز العلماء الذين تحدثوا في مسألة الكليات في مجال الأصول^(١)
لكنه صال وجال في التنظير لكثير من القضايا العلمية التي منها التفسير الموضوعي.

فالأصل في هذا البحث هو الكشف عن جهود الشاطبي في التأصيل للتفسير
الموضوعي الكشفي الذي يرمي إلى كشف الوحدة الموضوعية في سور القرآن الكريم،
وهو غير التفسير الموضوعي التجميعي الذي يرمي إلى جمع الآيات التي تتناول
موضوعا واحدا ثم تعمل على تركيبها للخروج بموضوع واحد، كالذي اعتمده باقر
الصدر في كتابه مقدمات في التفسير الموضوعي^(٢) أو الذي تناوله محمد حجازي في
كتابه «الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم»^(٣)

ونحب بادئ ذي بدء أن نشير إلى أن مصطلح «التفسير الموضوعي» من المصطلحات
المعاصرة جدا، على أن الفكرة التي يقوم عليها قديمة جدا أيضا، إذ يقوم أساسا على فكرة
الإدراك الشمولي والنظرة الكلية للأشياء والأفكار والقضايا، بعده بديلا للتفكير والإدراك

(٢) خير الدين الزركلي: الأعلام: المجلد الأول: ص: ٧٥: دار العلم للملايين بيروت لبنان ط ١/١٩٨٦

(٣) باقر الصدر: مقدمات في التفسير الموضوعي: ط/ ١٩٨٠

(٤) محمد حجازي: الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم ص٣٣-٣٤ / مطبعة المدني ١٩٧٠ وانظر: أحمد
رحماني: التفسير الموضوعي نظرية وتطبيقا ص: ٣٢ منشورات جامعة باتنة/ و أحمد رحماني مصادر
التفسير الموضوعي: ص٤٠ مكتبة وهبة/ القاهرة

التجزئى، تلك النظرة التي عرفها ابن خلدون بقوله: «الأصل في الإدراك إنما هو المحسوسات الخمس وجميع الحيوانات مشتركة في هذا الإدراك من الناطق وغيره، وإنما يتميز الإنسان عنها بإدراك الكليات وهي مجردة من المحسوسات، وذلك بأن يحصل في الخيال من الأشخاص المتففة صورة منطقية على جميع تلك الأشخاص المحسوسة وهي الكلي، ثم ينظر الذهن بين تلك الأشخاص المتففة وأشخاص أخرى توافقها في بعض فيحصل له صورة تنطبق أيضا عليهما باعتبار ما اتفقا فيه، ولا يزال يرتقي في التجريد إلى الكلي الذي لا يجد كليا آخر معه يوافقه فيكون لأجل ذلك بسيطا»^(٥). فالمسألة أساسا مسألة طريقة ومنهج في الإدراك ترتقي من إدراك الجزئيات البسيطة إلى إدراكها في إطار كلي يبني من العلاقة القائمة بين تلك الجزئيات ليكون مدركا كليا، ومن الطبيعي أن ذلك الكلي قد يتحول إلى مدرك بسيط بالنظر إلى العلاقة بينه وبين كليات أخرى تماثله ليتكون مدرك كلي جديد أقوى منه.

ونحن إذ نبحث هذه القضية إنما نرمي إلى أن نقف على جهود رجل نعد منهجه في هذا المجال من مجالات تفسير القرآن عظيمة جدا، ولكي نبرز الفكرة بصورة واضحة لا بد من الوقوف عليها بصورة موجزة في الإطار التاريخي ثم نحلل القضية عند الشاطبي، وهذا يستدعي تقسيم البحث إلى أربعة مباحث تتناول: تاريخ الفكرة في الثقافة الإسلامية عند النقاد والمفسرين، ثم نضجها عند الشاطبي وطريقة تطبيقه على سورة من سور القرآن الكريم، لنصل إلى الآليات المنهجية التي اعتمدها في ذلك.

المبحث الأول:

فكرة الوحدة الموضوعية

أولا: الإطار التاريخي العام لفكرة الوحدة الموضوعية:

إن هذا الأسلوب المعتمد على فكرة الإدراك الكلي في النظر إلى الأشياء والمعارف ليس حديث العهد، فهو من حيث النظر والممارسة قديم جدا يعود إلى ما قبل القرن الرابع

(٥) ابن خلدون: المقدمة: ٤٥٤-٤٥٥

الهجري، حيث نجد الجاحظ في القرن الثالث يؤلف كتابا في الإعجاز بالنظم^(٦)، ثم تنضج الفكرة في القرن الرابع إذ نجد الحاتمي^(٧) على سبيل المثال يهتم كثيرا بالنظرة الكلية للنص، وفي الواقع كانت نظرات الحاتمي قد وضحت هذه المسألة توضيحا كبيرا فبلغت في كتابه «حلية المحاضرة» مبلغا عميقا جعل الدكتور إحسان عباس يقول عنه بحق: «إنه ينفذ من ذلك إلى تصور عجيب لا نجده عند من سبقه من النقاد، وهو أول تصور من نوعه لوحدة تعد عضوية»^(٨)، قال ذلك بصدد تقديمه لمقولة للحاتمي يشبه فيها بناء القصيدة بخلق الإنسان هي: «إن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه وتعفي معالم جماله»^(٩).

إن هذا النص يترجم بحق فلسفة النظرة الكلية الشاملة للنصوص، ويترجم أيضا فهم الحاتمي للوحدة العضوية التي إن اعتبرها إحسان عباس «وحدة عضوية لا تؤدي معنى النمو» فإنه يعترف بأنها «تؤدي معنى التكامل والاعتدال والانسجام»^(١٠) وأكثر من ذلك كله إن عبارة الحاتمي التي يقول فيها: «تعفي معالم جماله» يمكن أن تشير إلى إدراكه العميق لسر جمال القصيدة، إذ يعني ما يقوله، إن فساد النظم فساد لوحدة البناء في القصيدة وإعفاء لمعالم جمالها، فمعالم الجمال تتأتى من التناسب والانسجام والتكامل والنظم والترتيب والتلاحم، ومما يؤكد ذلك انتباهه إلى جسور الانتقال في القصيدة الجاهلية ليبين من ذلك أنها وسيلة من الوسائل التي يعتمد عليها الجاهلي للحفاظ على وحدة القصيدة «لتأتي في تناسب صدورها وإعجازها وانتظام نسيبها بمديحها كالرسالة البليغة، والخطبة الموجزة، لا ينفصل جزء منها عن جزء...»^(١١).

(٦) الزمخشري: الكشاف: ١ / ١٥، وانظر أحمد رحمانى نظريات الإعجاز: ٦٣ - ٣٧ / مكتبة وهبة / مصر

(٧) الحاتمي محمد بن الحسن بن مظفر هو أحد نقاد القرن الرابع الهجري توفي سنة: ٢٨٨ - من آثاره: الرسالة الموضحة - والرسالة الحاتمية - وحلية المحاضرة للتوسع انظر: معجم الأدباء: ١٨ : ١٥٦

(٨) تاريخ النقد الأدبي ص: ٢٥٧

(٩) ابن رشيق: العمدة: ٢ : ١١٧ وانظر إحسان عباس تاريخ النقد: ٢٥٧ وحسين بكار: بناء القصيدة: ٢٩٧ ومعنى تتخون تتحيف كما صوبها إحسان عباس

(١٠) تاريخ النقد الأدبي: ص: ٢٥٧

(١١) حلية المحاضرة: ١ / ٢١٥ وانظر بناء القصيدة مرجع سابق: ١٩٧

وهذه الطريقة في الفهم والتفكير هي النظرة التي جسدها بعد ذلك في القرن الخامس الهجري عبقرى الدراسات الإعجازية - بدون منازع - عبد القاهر الجرجاني (-٤٧١) في دراساته القيمة حول نظرية النظم، إذ إن معنى النظم كما عرف عنده وهو بصدد الحديث عن العلاقات بين أجزاء العبارة يعني الوحدة والانتظام والتناسب والترتيب و التعلق فيقول: «أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك»^(١٢).

نضج الفكرة ودخولها في حقل التفسير:

ولا غرو والحال هذه أن نجد فكرة إدراك الكليات قد نضجت واستوت لتتبلور في منهج يقترحه العلماء لتفسير القرآن وفق نظرة كلية شاملة تنطلق من الكل المتكامل لتتوصل إلى العناصر المكونة له عن طريق تحليل ذلك الكل دون نسيان ضرورة فهم الجزء في ظل السياق الكلي للنص، لما في ذلك من أهمية في الفهم للنص وللمقاصد الشرعية بصورة أو ضح يعين عليها تفسير الجزئيات في النسق الذي ترد فيه، ونجد ذلك مدروسا بصورة واضحة عند علماء كبار في مجال الدراسات الشرعية والقرآنية، منهم الشاطبي (- ٧٩٠ هـ) في كتاب الموافقات، والبقاعي (- ٨٨٥ هـ)^(١٣) في تفسير «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور»^(١٤)، والسيوطي (- ٩١١ هـ) في أكثر من كتاب ومنها كتاب «أسرار ترتيب القرآن»، وكل واحد منهم قدم فكرته عن المنهج في مقالات نظرية دقيقة، بل لم يكتفوا بذلك إنما أعقب بعضهم الدراسة النظرية بنموذج تطبيقي رفيع المستوى حقا:

(١٢) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز: ٤٤

(١٣) البقاعي هو: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥ للهجرة / ١٤٨٠ للميلاد، محدث ومؤرخ ومفسر، من آثاره القيمة: تفسير «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور»، وكتاب «مساعد النظر للإشراف على مقاصد السور» وكتاب «الفتح القدسي في آية الكرسي» وكتاب «القول المفيد في أصول التجويد لكتاب ربنا المجيد» فسر القرآن الكريم بمنهج فريد من نوعه يقع في ثلاثين جزءا ويقوم على منهج التفسير الموضوعي الذي يتخذ من نظريتي المناسبات والنظم قاعدة أساسية له/ الأعلام للزركلي: المجلد: ١/ ص: ٥٦/ انظر تفصيل حياته في مقدمة كتاب «الفتح القدسي في آية الكرسي»: تحقيق عبد الحكيم الأنيس: دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث: دبي - الإمارات العربية المتحدة: ٢٠٠١

(١٤) أحمد عثمان رحمانى: مصادر التفسير الموضوعي: ص: ٦- ١١ مكتبة وهبة مصر القاهرة ١٩٩٨

أما الأول فهو الشاطبي موضوع البحث وهو المقدم من حيث التاريخ والسبق للإبداع^(١٥)، وأما الثاني وهو البقاعي فقد بين كل ذلك في تفسيره المسمى «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» وهو تفسير فريد من نوعه في المكتبة العربية والإسلامية القديمة والحديثة، فهو صاحب سبق في التطبيق على القرآن كله، فحق له أن يقول مفتخراً في مقدمته: «هذا كتاب عجاب رفيع الجنب في فن ما رأيت من سبقني إليه ولا عول ثاقب فكره عليه» ويقول بخصوص المنهج المتبع فيه: «ثمرته الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ما له بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب»^(١٦)، ولاشك أن هذا المفسر كان قد تأثر كثيراً بمن سبقه كالحراли^(١٧) (٦٣٨-) وأما الثالث فهو السيوطي الذي خصص كتاباً لدراسة «أسرار ترتيب القرآن» ووقف خصوصاً عند سبعة أنواع من صور التناسب بين أجزاء القرآن وهي:

- ١- بيان مناسبات ترتيب سور القرآن وحكمة وضع كل سورة منه في موضعها من السياق العام لترتيب القرآن
- ٢- بيان أن كل سورة شارحة لما أجمل في السورة التي قبلها
- ٣- بيان وجه اعتلاق فاتحة السورة بالخاتمة التي قبلها
- ٤- مناسبة مطلع السورة للمقصد الذي سيقت له
- ٥- مناسبة أوائل السور لأواخرها
- ٦- مناسبات ترتيب آياته واعتلاق بعضها ببعض وارتباطها وتلاحمها وتناسقها

(١٥) من الطبيعي أن القصد هنا ليس إيجاد الفكرة لأن فكرة وحدة السورة واضح من اسمها: قال السيوطي: وفي تسوير السورة تحقيق لكون السورة لمجرد ما معجزة وآية من آيات الله تعالى، الإتيان في علوم القرآن ١/ ٢٦٤ فالحديث عن بداية الفكرة قديم وإنما نقصد بالإبداع هنا إبداع المنهج عند الشاطبي

(١٦) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ج: ١ ص ٥

(١٧) الحرالي هو علي بن أحمد بن الحسن الحرالي مفسر من علماء المغرب أصله من حرالة من أعمال مرسية ولد ونشأ في مراكش ورحل إلى المشرق وتصوف ثم استوطن ببجاية وعاد إلى المشرق وتوفي في حماة بسورية، من كتبه «مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل» في التفسير قال ابن حجر جعله قوانين كقوانين «أصول الفقه»/ الأعلام للزركلي م ٤ ص ٢٥٦ وانظر عنوان الدراية ٨٧-٩٧

٧- مناسبة أسماء السور لموضوع السورة^(١٨)

ويهمنا هنا أن نتحدث عن فكرة التفسير الموضوعي عند الشاطبي لاعتقادنا أنها بحق فكرة سابقة لعصرها عمقا ومنهجًا، وأنها هي التي مهدت لتفسير البقاعي الطريق الصعب والشاق الذي سلكه، وسنبين ذلك في موضعه بإذن الله.

ثانياً: فكرة الكليات وعلاقتها بالتفسير الموضوعي عند الشاطبي:

لقد كتب الشاطبي (-٧٩٠هـ)^(١٩) في القرن الثامن للهجرة كثيراً عن فكرة الكليات وأهميتها في البناء الفكري وما يستلزمه من طرائق تيسر الفهم بصفة عامة وفهم القرآن بصفة خاصة، فهو حينما يتحدث عن العلاقة بين المكي من القرآن والمدني نراه يفكر بمنهج الكليات والجزئيات فيقول: «القواعد الكلية هي الموضوعة أولاً والتي نزل بها القرآن على النبي ﷺ بمكة ثم تبعها أشياء بالمدينة كملت بها القواعد التي وضع أصلها بمكة»^(٢٠)، وحين يتحدث عن العلاقة بين العناصر في النصوص يوجه الأنظار إلى ضرورة إدراك العلاقة بينها في إطار التفكير الشمولي فيقول: «إذا رأيت في المدنيات أصلاً كلياً فتأملته تجده جزئياً بالنسبة إلى ما هو أعم منه أو تكميلاً لأصل كلي، وبيان ذلك أن الأصول الكلية التي جاءت الشريعة بحفظها خمسة وهي: الدين والنفس والعقل والنسل والمال»^(٢١)، بل إنه يرى أن «تعريف القرآن بالأحكام الشرعية أكثره كلي لاجزئي وحيث جاء جزئياً فأخذه على الكلية»^(٢٢)، ونظراً لإدراكه الكبير لأهمية النظرة الكلية لمسائل العلم والفكر ولخطورة دور ذلك في الفهم نجده يلح على الباحث الحصيف لأن يوجه نظره إلى هذا المنهج فيقول: «محال أن تكون الجزئيات مستغنية عن كلياتها فمن أخذ بنص - مثلاً - في

(١٨) السيوطي: أسرار ترتيب القرآن: ص ٣ - دار الاعتصام - القاهرة: والسيوطي: هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي جلال الدين، إمام حافظ مؤرخ وأديب له نحو ٦٠٠ مصنف منها الإتيقان في علوم القرآن وتمام الدراية والأشباه والنظائر والتحبير لعلم التفسير وتدريب الراوي وترجمان القرآن وتفسير الجلالين ولباب النقول في أسباب النزول... توفي ٩١١ هـ حوالي ١٥٠٥ ميلادية/ الأعلام للزركلي: ٣/ ٦٥

(١٩) الشاطبي سبق التعريف به وانظر / خير الدين الزركلي: الأعلام: ١/ ٧٥

(٢٠) الموافقات: ٣/ ١٠٢

(٢١) نفسه: ٣/ ٢٦

(٢٢) الموافقات: ٣/ ١١٦

جزئي معرضا عن كليّيه فقد أخطأ، وكما أن من أخذها لجزئي معرضا عن كليّيه فهو مخطئ، كذلك من أخذ بالكلي معرضا عن جزئيه ... ودل ذلك على أن الكلي لا يعتبر بإطلاقه دون اعتبار الجزئي، وهذا كله يؤكد لك أن المطلوب المحافظة على قصد الشارع لأن الكلي إنما ترجع حقيقته إلى ذلك، والجزئي كذلك أيضا فلا بد من اعتبارهما معا في كل مسألة»^(٣٣).

وهذه الفكرة الأخيرة مهمة جدا فيما نحن بصدد معالجته إذ تحدد الإطار المنهجي الذي تفهم فيه النصوص القرآنية، ويبين أن الفهم التجزيئي للنصوص قد لا يفي بتحقيق المراد من النص، كما أن الفهم الكلي وحده في غياب التحليل للجزئيات من أجل التغلغل في عمق النص غير مفيد في تحقيق الهدف، وهكذا يضعنا أمام مشكلة منهجية جديدة مفادها «محال أن تكون الجزئيات مستغنية عن كليّياتها»، كما أن «الجزئيات مقصودة معتبرة في إقامة الكلي»^(٣٤).

وعلى هذا الأساس فإن «إهمال القصد في الجزئيات يرجع إلى إهمال القصد في الكلي، لأنه مع الإهمال لا يجري كليا بالقصد»^(٣٥).

ويبين الهدف من اعتماد المنهج القائم على هذه النظرة فيقول: «المقصود بالكلي هنا أن تجري أمور الخلق على ترتيب ونظام واحد لاتفاوت فيه ولا اختلاف»^(٣٦) هكذا يصمم الشاطبي تصميم الواعي بقيمة ما يؤسس له من قواعد منهجية، من شأنها أن تكون نظرية شاملة في الدراسات العلمية الجادة، تلك التي تتجاوز النظرة التجزيئية البسيطة إلى النظرة الكلية العميقة التي تربط أجزاء النصوص ببعضها، وتربط أجزاء القضايا ببعضها حتى تخرج بصورة واضحة المعالم عن موضوع دراستها، بحيث يصبح النص الكلي يقدر باعتباره مبنيا من مجموع الأجزاء، والنص الجزئي يفهم ضرورة في سياق الكلي، وكل إهمال لأحدهما يعد إهمالا لما به يفهم الآخر.

(٢٣) الموافقات: ٣/٣-٤

(٢٤) الموافقات: ٤١/٢

(٢٥) نفسه: ٤١/٢

(٢٦) نفسه: ٤١/٢

